

**ثالثاً: مقدمات تأصيلية لمسألة
الغناء والموسيقى**

الأولى

إنها قضية «عادية» لا «تعبدية»، والأصل في العادات الإباحة والحل؛ يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة ٢٩].. وما كان الله تعالى ليخلق لنا الأشياء ثم يحرمها علينا، إنما يحرم علينا الخبيث والضار، ولا تحريم إلا بنص، أو معناه، صحيح صريح؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا أَضْطَرَّرْتُمُ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام ١١٩]؛ فما سُكِّتَ عنه، أو لم يرد فيه نص صحيح صريح، أو لم يندرج في معناه، فهو عفو، لا يجوز تحريمه البتة، رحمةً من الله بنا غير نسيان؛ فإن الله لم يكن لينسى شيئاً، حاشاه؛ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم ٦٤].

فأين هو الناقل عن هذه الإباحة في مسألتنا محل البحث حتى نذهب إليه؟! ليبرزه لنا من يجده.

والصواب عندي أنه لن يجده أبداً؛ إذ لم يوجد نص، أو معناه، فيما انتهى إليه اجتهادنا وبعد استفراغ الوسع والطاقة في البحث والتنقيب والنظر، صحيح صريح يفيد حرمة الغناء والموسيقى، بل قد وجدنا القرآن والسنة - بنصوصهما ومقرراتهما- والمعقول على خلاف ما ادَّعى من التحريم، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

الثانية

١- إن أصل حكم الشرع في سماع الأصوات الحسنة - سواءً كان مصدر الصوت إنساناً أو طائراً أو آلة - هو الإباحة.

وما نطق الشرع فيه بحكم سوى ذلك؛ فلعللة خارجة عن حسنه لذاته؛ كإيجابه سماع القرآن والإنصات له (لعللة التعبد، ولكونه كلام الله؛ فهو خير السماع وأحلى وأجل ما يمكن أن تصغى إليه أذن) .. وكإيجابه القيام بالأذان (لما فى ذلك من إظهار شعائر الإسلام، والتنبيه على دخول وقت الصلاة) .. وكإيجاب أو ندب سماع الذكر والعلم (لما فى ذلك من فوائد عظيمة جمّة) .. وكتحريمه النياحة على الميت (لما فى ذلك من الاعتراض على أمر الله، والإشعار بعدم الرضا بقدره سبحانه) .. وكتحريمه التكسر والميوعة فى الكلام (لما فيه من نشرٍ للفتنة والرذيلة والتحلل والإباحية).

٢- والقول بأن الأصل هو الإباحة ليس مبنياً على فراغ، ولكنه مبنى على عدد من الأسس المحكمة، فوق ما ورد فى المقدمة التأصيلية الأولى-، منها :

أ- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف ٣٢].. والصوت الحسن جمال وزينة، والطيب منه حُبُّه واستماعه أمر فطرى، وتأثيره فى السامع له لا يمكن أن ينكره أحد.

ب- قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾ [الأعراف ١٥٧] .. فلا حرام فى الإسلام إلا للخبيث الضار، سواءً كان خبثه وضرره مادياً أو معنوياً، فردياً أو اجتماعياً، آنياً أو مستقبلياً .. ولا شىء فى الصوت الحسن - ومنه بالطبع الغناء والموسيقى؛ لما فىهما من حسن لا ينكره عاقل- إلا أنه من طبيبات الدنيا التى تستلذها

الأنف، وتستطيبها العقول، وتستحسنها الفطر، وتستهيها الأسماع؛ فهو لذة الأذن يمثل ما أن الطعام الهنيء لذة المعدة والمنظر الجميل لذة العين والرائحة الذكية لذة الأنف.

ثم إن الصوت - بالنظر إلى كل مُستلذِّ ومُستعذَّب منه - يعود إلى الأصل في اللذة والاستعذاب؛ وهو «إدراك الملائم للطبع الإنساني والقطرة البشرية».. وهذا هو معنى «الطيبات»؛ أى : ما تستطيبه النفس وتلتذ به من مطعم ومشروب ومشوم وملبوس ومرئى ومسموع، وغير ذلك مما يجد له الإنسان أثرا طيبا فى نفسه؛ به يهدأ، وبه يرتاح، وبه ينشط، وبه تسكن جوارحه؛ فتراه منشرح الصدر منبسط الأسارير.

ج- قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان ١٩] .. وهذا يدل بمفهومه على مدح الأصوات الحسنة والطيبة، بل والموزونة.. وليس هناك شك فى أن الغناء والموسيقى من ذلك؛ لأن مفهوم «الصوت» يشملها قطعا وبقينا.

د- إن حب الغناء والموسيقى - كنوع من الأصوات الحسنة- «فطرة إنسانية» و«طبيعة بشرية»؛ لأن الصَّوت الجميل الحسن - ومنه الغناء والموسيقى- مرادُ السمع، ومرتع النفس، وربيع القلب، ومسلاة الكئيب، وأنس الوحيد.. ثم إن للصوت الحسن تأثيرا محسوسا فى تليين الطباع، واسترواح النفوس، وجلاء الهموم، وتخفيف الأحزان، وتعميق الوجدان.. كما أن له أثرا ملموسا - وغير منكور- على عطاء الإنسان وتحصيله وإسهامه فى الأعمال البدنية والعقلية.

وكما أن العطلة معينة على العمل، فكذلك اللهو - والغناء والموسيقى

واللعب والترفيه - معين على الجد؛ لأنه دواء القلوب من الإعياء والملل، ومنقذها من جفاف الحياة وقسوة الاستمرار في الشغل.

ثم إن لله سبحانه وتعالى سرا في مناسبة النغمات الموزونة للنفس الإنسانية، حتى إنها لتؤثر فيها تأثيرا عجيبا؛ فمن الأصوات ما يُفرح، ومنها ما يُحزن، ومنها ما يُنوم، ومنها ما يُضحك، ومنها ما يُطرب، ومنها ما يستخرج من أعضاء الإنسان - كاليد والرجل والرأس - حركات على وزنها .. ولذلك قيل - في كلمات ظريفة - : «من لم يحركه الربيع وأزهاره، والعود وأوتاره؛ فهو فاسد المزاج، ليس له علاج»^(١).. و«من لم يتأثر برقيق الأشعار، تتلى بلسان الأوتار، على شطآن الأنهار، في ظلال الأشجار؛ فذلك جلف الطبع حمار»^(٢).

إن حب الغناء والموسيقى ليس فطرةً إنسانية وبشرية فحسب، بل هو أيضا فطرة كونية :

- فنحن نشاهد الرضيع في مهده يُسكته الصوت الطيب والنغمات الموزونة عن بكائه

- ونشاهد الجمل - وهو الحيوان الأعجمي - يتأثر بالحداء - وهو نوع من الغناء - تأثرا يستخف معه الأحمال والأثقال، ويستنصر بسببه المسافات الطوال؛ فترى الإبل تمد أعناقها، وتصغي ناصبة آذانها، وتسرع سيرها حتى تتزعزع عليها أحمالها

- وحتى الأبقار عند سماعها للموسيقى تدر - في لين وسهولة ويسر

(١) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي.

(٢) الفتاوى لمحمود شلتوت، ناقلا العبارة عن شيخ الأزهر السابق/ حسن العطار. رحم

- كميات وفيرة من الألبان التي تتميز بقيمة غذائية عالية
 - بل وحتى النباتات تتأثر بالموسيقى؛ فالحقول التي وُضعت في
 جو موسيقى (حيث زُوِّدَت الحقول - في التجارب العلمية العملية -
 بأجهزة صوتية قوية يصدر عنها موسيقى) أعطت محصولاً أكثر جودةً
 من المحاصيل التي نمت بدون موسيقى. كما ثبت أن الزهور تزداد
 نضارتها وتفتحها على أنغام الموسيقى، وتنقبض شيئاً ما عند سكوتها.
 وما قلوب البشر - ونفوسهم وأرواحهم - بأقل من إحساس الحيوانات
 والبهائم والطيور والنباتات والأزهار، بل إن الإنسان بطبعه عاقلٌ،
 ذكي، متحضر، مرهف الإحساس، وله وجدان وعاطفة لا تتمتع بها
 تلك المخلوقات.

كيف لا يكون حب الموسيقى - بعد كل ذلك - فطرةً إنسانية وبشرية
 وكونية :

كيف لا، وللموسيقى على الأجنة أبلغ الأثر في تكوينها العصبى
 والنفسى والوجدانى؛ حيث تؤدى إلى تهدئة ملحوظة فى ضربات قلبه،
 وتغيرات هرمونية من شأنها وقايتة من الأمراض العصبية والنفسية، ومن
 عيوب النطق والعجز عن التعلم واكتساب المعرفة والمهارات عندما يولد،
 بالإضافة إلى انخفاض نسبة تشوهات الأجنة انخفاضاً ملحوظاً.

كيف لا، وللموسيقى أبلغ الأثر على الأطفال؛ فلقد ثبت أن ٩٤٪
 من حديثى الولادة يسكتون عن البكاء ويستغرقون فى النوم فور سماعهم
 للموسيقى التى كانوا يسمعونها وهم أجنة. وثبت أيضاً أن سماعهم بوجه
 عام يؤدى إلى رفع مستوى الذكاء والإبداع والتحصيل ذهنى.

كيف لا ، وللموسيقى أبلغ الأثر على الإنسان البالغ الصحيح السليم المعافى ؛ فسماعه لها يُحدثُ تغيرات فسيولوجية تتمثل في :

- زيادة القدرة على تحمل متاعب العمل وضغوط الحياة
- وتنشيط الحواس والدورة الدموية والعضلات
- وتحفيز عمليات هضم الطعام وامتصاصه ، والتخلص من المواد الضارة

- وتبعث على الهدوء والطمأنينة والسكينة
- وتساعد على إفراز «الإندروفينات» ؛ وهي مواد كيميائية طبيعية لها فعالية في تسكين الألم والتغلب على الأرق والقلق ، وإحداث النشوة ، وتنشيط الجهاز المناعي ومقاومة الميكروبات
- وتقلل من إفراز الجسم لهرمونات الإجهاد ؛ مما يؤدي إلى هدوء الأعصاب ، وتقليل توتر العضلات ، وتقليل احتمالات الإصابة بأمراض القلب والشرايين

- وتهدئ معدل التنفس ، وتخفف معدل ضربات القلب ومستوى ضغط الدم

- فضلا عن تنشيط مراكز الذاكرة بالمخ
- كيف لا ، وللموسيقى فوائد جمة ونتائج إيجابية ملحوظة في علاج عدد كبير من الأمراض ^(١) - كعلاج أساسي أو كعلاج مساعد / تكميلي في كثير من الأحيان - ، مثل : الأرق والقلق والاكتئاب والفصام والشلل

(١) حتى إن تاريخنا الإسلامي قد شهد - منذ العباسيين - أوقافا للموسيقى التي تُعرَف للمرضى في البيمارستانات (أى المستشفيات بالتعبير القديم).

الرعاش والصرع والبارانويا، والربو الشعبى والبرد والصداع. وأمراض القلب وضغط الدم ومتاعب سن اليأس. والحروق والتئام الجروح وتسكين آلام الظهر والمفاصل، والمساعدة فى علاج بعض أمراض العيون ومرضى السكر، وتخفيف الأعراض الجانبية الناتجة عن استعمال العلاج الكيميائى لمعالجة السرطان، وإحداث تأثيرات إيجابية أثناء الحمل (بتقليل مضاعفاته) والولادة (بتخفيف الألم والقلق وتقليل فترة الولادة نفسها بشرط سماع الموسيقى لمدة ٤ أسابيع بدءاً من الشهر الثامن للحمل)^(١).

(١) للتفصيل انظر :

– علاج بلا دواء، د/ عز الدين الدنشارى، (ص ١٠٧ – ١٢٠)، ديسمبر ٢٠٠١م، كتاب الهلال الطبى، دار الهلال – القاهرة.

– تأثير موتسارت The Mozart effect للكاتب الأمريكى/ دون كامبل Don Campbell ؛ حيث بين فيه تأثير الموسيقى الكلاسيكية بوجه عام، وموسيقى موتسارت بوجه خاص، كما استعرض فيه الكثير من البحوث والدراسات العلمية السّتي أجريت حول التأثير الطبى للموسيقى فى الولايات المتحدة الأمريكية.

Oxford Press ، ٢٠٠٥ ، ٦th edition ، ٤٠٦ . Clinical Medicine, P –

– موقع : www.musictherapy.org .

– الفوائد الطبية للموسيقى ، د. يحيى رضا جاد، مقال لم يُنشر بعد.

ولاحظ أن كل ما ورد فى المتن – عدا الفقرة الأخيرة – من نص على بيان أثر الموسيقى على الإنسان الصحيح السليم، مما يؤكد على أن حب الموسيقى أمر فطرى قد جُبلنا عليه، وإلا لما تجاوز جسم الإنسان السليم معها، فتأمل.

وهذا بخلاف الموسيقى الصاخبة (مع ما يصاحبها، مِن قِبَل سامعيها، مِن حركات بهلوانية جنونية رعاء)، كالموسيقى التى نراها الآن مقترنةً بأكثر الأغاني الغربية المعاصرة؛ كموسيقى «الديسكو»، وموسيقى فرق «الهيبيز» الغربية، وأمثالها من الموسيقى الصاخبة التى تحول مستمعيها إلى قطيع هائج من القروء يقفز يمينا وشمالا، مع رعونة وخفة تُخرِج عن حد الاعتدال، وتَهبط بالكهول إلى التصايب، وبالعقلاء إلى مرتبة المجانين!

فمثل هذه الموسيقى – عندى – مذمومةٌ ومستقبحة فى العقول، والقطرة البشرية السليمة =

أبعد كل هذا ينكر المنكرون أن يكون حب الصوت الحسن والموزون
 - من غناء وموسيقى - «أمرًا فطريًا» و«سنة كونية»؟!
 وبناءً على ما تقدم جميعه نقول : إذا كان حب الغناء والموسيقى

= - فيما أرى- تمج سماع هذه الموسيقى وتنفر منها؛ لشذوذها وعدم ملاءمتها للطباع والنفوس
 المحبولة على الميل إلى سماع الألحان الجميلة واستعذاب الأنغام الراقية التي تسمو بالإنسان
 وبأحاسيسه ووجدانه ومشاعره، لا التي تهبط به إلى مرتبة المجانين والقرود وذوات الأربع.
 والنفوس السوية - فيما أظن - لا تستلذها، والعقول لا تستطيبها، والفطر لا تستحسنها،
 والأسماع لا تشتهيها. وما كان كذلك فهو ليس من «الطيبات»، بل من «الخبائث». وليست بذلك
 - فيما أرى - مندرجة، بأى حال من الأحوال، تحت مفهوم «الصوت الحسن» - الذى أضفت
 الشريعة الإسلامية عليه ثناء حسنًا كما سنوضح بعد قليل- ؛ لعدم ملاءمتها للطبع الإنسانى.
 إضافةً إلى ثبوت ضرر هذه الموسيقى الصاخبة على الإنسان (أقصد الضرر المادى الطبى)؛
 لما تسببه من زيادة فى ضربات قلب الجنين (إن استمعت لها الأم الحامل)، واضطراب فى
 وظائف أعضائه.. كما تساعد على حدوث تشوهات لأجنة.. كما تزيد - فى الإنسان العادى
 الطبيعى غير المريض - معدلات التنفس، وضربات القلب، وضغط الدم.. وتثير الاعصاب،
 وتزيد توتر العضلات.. كما تزيد من إفراز الجسم للأدرينالين والكورتيزون (مما يساعد على:
 حدوث تصلب الشرايين، وارتفاع مستوى الكوليستيرول، والسكر، وضغط الدم، وإضعاف جهاز
 المناعة).. بالإضافة إلى مساهمتها فى إحداث قرحة الإثنا عشر، وحرقان المعدة، وعسر الهضم،
 والصداع، والدوخة.

كل تلك الأضرار تثبت - بما يححو كل شك أو ارتياب - أن تلك الموسيقى الصاخبة - فى
 تقديري- مناقضةٌ للفطرة التى فطر الله الناس عليها، وإلا لَمَا كان منها ضرر !
 فهل يبقى بعد هذا البيان قول ؟!

ما أعذب موسيقانا الشرقية العربية الأصيلة، وما أعذب الموسيقى الكلاسيكية : صفاءً،
 وجاذبية سمعية، وجمال إيقاع، ورقّة أنغام .. إنها شجنٌ عذبٌ، يجد له الإنسان أثرًا طيبًا
 فى نفسه، به يهدأ، وبه يرتاح، وبه ينشط، وبه تسكن جوارحه، فتراه منشراح الصدر، منبسط
 الأسارير

شتان ما بين الحالين والنوعين.

والخلاصة : أن كل صوت منكر حسا - أو شرعا- ليس بطيبٍ يُستلذ.

فطرة وغريزة - كما أوضحنا وسنوضح بالأدلة المحكمة من كتاب الله المسطور وكتاب الكون المنظور - ف«هل جاء الدين لمحاربة الفطر والغرائز ومصادرتها والتنكيل بها - كما يدعى المحرمون؛ بتحريمهم للسمع- أم جاء لتقريبها وتهذيبها والسمو بها وتوجيهها التوجيه القويم السليم لتستخدم فيما يرقى بالإنسان معنويا وماديا؟! إن الأنبياء إنما بعثوا بتكميل الفطرة وتقريبها لا بتبديلها وتغييرها .. والشريعة إنما جاءت بتعاليمها لتوجه الإنسان - فى مقتضيات الفطرة والغريزة- إلى الحد الأوسط؛ فهى لم تنزل لانتزاع غريزة حب المال، وإنما نزلت بتعديلها على الوجه الذى لا جشع فيه ولا إسراف ولا تقتير .. وهى لم تنزل كذلك لانتزاع غريزة الحزن، وإنما نزلت بتعديلها على الوجه الذى لا هلع فيه ولا جزع ولا إياس من رحمة الله .. كما لم تنزل لانتزاع غريزة حب المناظر الطيبة والمسموعات المستلذة، وإنما نزلت بتهذيبها وتعديلها على وجه لا ضرر فيه ولا شر.

وهكذا تقف الشريعة بالنسبة لسائر الغرائز موقف الاعتدال والقصد والتنظيم وكبح الجماح عن الحد الذى يُنسى الإنسان واجباته أو يفسد عليه أخلاقه أو يحول بينه وبين أعمال أخرى ألزم وأوجب .. وقفت موقف الاعتدال والتنظيم، لا الإفراط ولا التفريط، ولا الإماتة ولا الانتزاع .. فما أعظمها وأكرمها من شريعة»^(١)!

(١) أصل فكرة هذه الفقرة مستفاد - بتصرف؛ تنقيحا للعبارة وتحريرا لها وزيادة عليها وحذفا منها- من فتوى شلتوت المتعلقة بالغناء والموسيقى ومجموع فتاوى ابن تيمية وكتاب القرضاوى فى الغناء والموسيقى.

هـ - إن الشريعة الإسلامية قد أضفت على الصوت الحسن ثناءً حسناً، بل أفصحت عن طلبها واستحسانها واستحبابها له في أقدس كلام وأطهر مقام؛ وذلك بحثها على التغنى بالقرآن الكريم وعلى التغنى بالأذان (لأن النفوس بطبعها تستلذ بالأصوات الحسنة، بل إن الشريعة ما حثت على التغنى بالقرآن إلا لأجل أثر الصوت الحسن في النفس). أما الأذان: فقد قال (صلى الله عليه وسلم): «.. قم مع بلال فألق عليه ما رأيت، فليؤذن به؛ فإنه أندى [وأمد] صوتاً منك»^(١).

وفى عودته (عليه الصلاة والسلام) من غزوة حنين، سمع أناساً يؤذنون بالصلاة؛ تقليداً لمؤذن رسول الله ﷺ واستهزاءً بالمسلمين، فقال ﷺ: «قد سمعتُ في هؤلاء تأذين إنسان حسن الصوت» فأرسل إليهم النبي ﷺ، وقال لصاحب الصوت الحسن: «تعال»، فأجلسه بين يديه ومسح على ناصيته وبرك عليه ثلاث مرات، ثم قال ﷺ: «أذهب فأذن عند البيت الحرام» وعلمه الأذان^(٢).

وأما القرآن: فقد قال ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»^(٣) [فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً]^(٤).

وقال ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»^(٥).

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٩) والترمذى (١٨٩) والزيادة له. وصححه الألبانى.

(٢) أخرجه النسائى (٦٣٣) وصححه الألبانى.

(٣) أى لأن الكلام الحسن يزداد حسناً وزينة بالصوت الحسن.

(٤) أخرجه النسائى (١٠١٥) وابن ماجه (١٣٤٢) والدارمى والحاكم. والزيادة لهما.

وصححه الألبانى فى الصحيحة (٧٧١).

(٥) أخرجه البخارى (٧٥٢٧) وأبو داود (١٤٦٩) وأحمد (٤٤/٣) (٧٥).

وقال ﷺ: «ما أذنَ اللهَ لشيءٍ ما أذنَ لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن»^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «أبطأتُ على عهد رسول الله ﷺ ليلةً بعد العشاء، ثم جئْتُ، فقال: «أين كنتِ؟»، قلتُ: كنتُ أستمع قراءة رجل من أصحابك لم أسمع مثلَ قراءته وصوته من أحد. قالت: فقام ﷺ وقمتُ معه حتى استمعتُ له، ثم التفتتُ إلى فقال: «هذا سالم مولى أبي حذيفة، الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا»^(٢).

ومن هنا تعلم أن الإسلام قد راعى ميل الإنسان - بحكم فطرته - لسماع الصوت الحسن، وأدرك ما له من أثرٍ عليه؛ فحث على التغنى بالأذان والقرآن؛ لينسجما مع النفوس؛ فإن للصوت الحسن تفاعلا عجيبا وغريبا مع النفوس والأرواح، حث يسرى في الجسم، ويجرى في العروق؛ فتصفو له النفس، ويرتاح له القلب، وتهتز له الجوارح.. انظر وتأمل ما للتغنى بالقرآن من أثرٍ في جلب الخشوع والسكون والأنس بالله، وما للترنم بعبارات الذكر والشكر للمنعِم من أثرٍ يلامس المشاعر الباطنة.. وما للإنشاد بالشعر الجميل في الحكمة والعلم والأدب وحب الخير ما يشد القلوب للعمل.. وما لسماع الغناء والموسيقى وأصوات البلابل والعصافير من مجلبةٍ للسكن والهدوء وراحة البال والفكر.

وقال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عندما سمع قراءته: «لقد أوتيتُ مزمارا من مزامير آل داود».

(١) أخرجه البخارى (٧٥٤٤) ومسلم (٧٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٥/٦) وابن ماجه (١٣٣٨). وصححه الألبانى فى الصحيحة

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد ، فسمع قراءة رجل ، فقال : «من هذا ؟» فقيل : عبد الله بن قيس . فقال صلى الله عليه وسلم : «لقد أوتى هذا من مزامير آل داود»^(١) .

والمقصود من هذه الأحاديث مدحُ هذين الصحابييين في حسن صوتهما بالقرآن ، وأن صوتهما يشبه حسنه حُسنَ أصوات المزامير ؛ فشبهه صلى الله عليه وسلم هذه بتلك بجامع الحسن المؤثر في القلوب والنفوس .

والنبي صلى الله عليه وسلم يستحيل أن يُشَبَّهَ ما أحبه بما أبغضه وحرمه وقضى بخبثه وشيطانيته - والمخالِف يزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم يبغض الغناء والمعازف ويحرمهما- .

إن تشبيهه النفيس بالخسيس من سوء الأدب ، كما أن تشبيهه الحلال بالحرام لا يجوز ، وحاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل شيئا من ذلك .

والشاهد من هذا أن الأصوات الموزونة الخارجة من آلات المعازف طيبةٌ في الأسماع ، حسنةٌ في العقول ، ومن أجل ذلك استعملها النبي صلى الله عليه وسلم «مقاييس» للأصوات الحسنة المحبوبة ؛ حيث شَبَّه الصوت الحسن في قراءة القرآن بصوت المزامير ؛ لحسن صوت قارئ القرآن وحلاوة نغمته .. ولو كانت محرمةً لما استعملها مقاييسا على الإطلاق كما سيأتى توضيحه إن شاء الله .

وها هو ذا التابعي الجليل الكبير أبو عثمان النهدي يقول - مستخدما نفس أسلوب النبي صلى الله عليه وسلم السابق- : «ما سمعتُ مزمارا ولا طنپورا ولا صنجا أحسن من صوت أبي موسى ، إن كان ليصلى بنا فنود أنه قرأ

(١) أخرجه البخارى (٥٠٤٨) ومسلم (٧٩٣ مكرن) .

البقرة؛ من حسن صوته»^(١).. فكأن أبا عثمان يقول : سمعتُ أحلى الأنعام الموسيقية من أحلى آلات المعازف ، فكان صوت أبي موسى بالقرآن أحلى منها وأعذب .. فشبهه صوتَ أبي موسى بأصوات الآلات بجامع الحسن المؤثر في القلوب والنفوس.

ز- وهي عينها المقدمة الثالثة الآتية توا :

الثالثة

إن لذة النظر في المبصرات الجميلة (كالماء والخضرة والوجه الحسن وسائر الألوان الجميلة). وذلك في مقابلة ما يُكره من المبصرات القبيحة والألوان غير المنسقة.

كما أن لذة الشم في الروائح العطرة والطيبة. وذلك في مقابلة الروائح النتنة والمستكرهة.

كما أن لذة التذوق في الطعوم اللذيذة كالحلاوة والحموضة. وذلك في مقابلة المرارة المستبشعة.

كما أن لذة اللمس في النعومة واللين. وذلك في مقابلة الخشونة كما أن لذة العقل في العلم والمعرفة. وذلك في مقابلة الجهل والبلادة. كما أن لذة السمع في سماع الأصوات الطيبة والرقيقة والمنشطة للفكر والوجدان (كسماع القرآن والأذان والتواشيح والحداء والغناء وصوت العصفور والعنديلين والمعزف وكل آلة لها صوت مستساغ). وذلك في مقابلة نهيق الحمار ونباح الكلب ونعيق البوم والغريان^(٢).

(١) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في «فضائل القرآن»، والبخارى في «خلق أفعال العباد» (ص ١٢١، رقم ٢٩٠)، كلاهما بسند صحيح.

(٢) أصل فكرة السطور التسعة السابقة مستفاد - بتصرف؛ تنقيحاً وتحريراً وإضافة =

فلا معنى - بناءً على ما سبق من توضيح- لأن تستمتع العين بالمناظر الجميلة، والأنف بطيبات الروائح من مسك وعنبر وورد، واللسان بالمطعمات الحلوة، واليد باللموسات الناعمة والليونة، والعقل بالعلم والمعرفة.. لا معنى لأن تستمتع كل تلك الحواس والأعضاء بذلك، ولا تستمتع الأذن بالطيب من الأصوات، سواءً كان هذا الصوت صادراً من إنسان أو من آلة أو من طائر أو حيوان؛ إذ «لا معنى على الإطلاق للاستمتاع بصوت الهزاز والبلبل دون صوت الآلات - التي هي تقليد من الإنسان لصنع الله في الطبيعة - .. وإذا جاز سماع صوت غُفْلٍ (كصوت العصفور) فَلِمَ نَحْرَمُ سماع صوت موزون صادر من آلة مصحوباً (أو غير مصحوب) بكلام يُفهِمُ منه الحكمة والمعاني الجميلة. هذا «صريح العقل» الذى «يستحيل/ يمتنع» أن تأتى الشريعة بخلافه!

إن العنديلين والعصفور - وغيرهما من الطيور- لها أصوات موزونة متناسبة المطالع والمقاطع؛ لذلك يستلذ بسماعها الإنسان.. فهى موسيقى ربانية.. فلماذا نحرّمها إذا قلدها الإنسان وهو يحاكي ما فطر الله عليه بعض خلقه؟!

إنما وُضعت الموسيقى ونغماتها على أصوات هذه الطيور؛ تشبيهاً للصنعة بالخلقة، وما من شىء توصل إليه علماء هذا العصر وأهل الصناعة إلى تصويره أو ابتكاره إلا وهو مأخوذ - فى الغالب- من الخلقة التى بَدَعَهَا اللهُ تعالى^(١).

=وحذفنا - من إحياء أبى حامد الغزالي ومقدمة ابن خلدون وفتوى شلتوت المتعلقة بالغناء والموسيقى وكتابتى سالم على الثقفى والقراضاوى فى الغناء والموسيقى.

(١) أصل فكرة هذه الفقرة مستفاد - بتصرف؛ تنقيحاً وتحريراً وإضافة وحذفاً - فيها.

ونخلص من هذا إلى أن الموسيقى يستحيل أن تحرم لمجرد كونها صوتا طيبا موزونا مستلذاً، وإلا فلنحرم سماع أصوات الطيور لمجرد كونها أصواتا طيبة موزونةً مستلذة!

إن اللذة بسماع الأصوات هي سبب إقبال النفوس عليها واشتغالها بها، سواءً كانت قرآنا أو أذانا أو غناءً أو موسيقى؛ فالأصوات الحسنة مؤثرة على العقول والأذهان، وفاعلة في الطباع والأمزجة، بما لا يخفى إدراكه في واقع الحياة.

ولذلك فالأصل في السماع هو الحل جريا على الفطرة؛ إذ الإسلام دين الفطرة. واللذة بذلك مشروعة في أصلها؛ لموافقة الطبيعة الإنسانية. إن سماع الأصوات - أيا كان مصدرها - لا يمكن أن يحرم بمجرد كونه «صوت آلة» أو «صوت إنسان» أو «صوت طائر أو حيوان»، وإنما يحرم الصوت إذا صاحبه عارض تحريم أو اقترن بمنكر؛ كإذا ما استُعين به على محرم، أو اتُّخذ وسيلةً إلى الحرام، أو ألهى عن واجب لا يحتمل التأخير.

= من إحياء أبي حامد الغزالي وكتب عمارة والقرضاوى فى الغناء والموسيقى - حيث تابعه فيها -.